مجلة المرابط

العدد : ٢٠٥ الموافق في شعبان ١٤١٩ هجري ١ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الظلم !... الظلم ! -٢-	بقلم : الأستاذ عصام العطار

ظلم الحقّ

وأول ما أبدأ به من ضروب الظلم جحودُ الحقّ ، والكفرُ به بعد ما تبيّن ؛ فالكفرُ بالحق في مختلف صُوره ودرجاتِه ظُلم . والله تعالى يقول : { **والكافِرون همُ الظالمونَ** } [البقرة ٢٥٤]

وأكفر الكفر ، وأظلمُ الظلم...أن تكفر بالله وتشرك به ما ليس لك به علم : { **وإذ قال لقمانُ لابنِه وهو يعِظهُ يابنيّ لا تشركْ باللهِ إنّ الشركَ لظلمٌ عظيم** }[لقمان : ١٣]

والله تعالى يقول :

{ **الذين آمنوا ولم يلبسُوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** } [**الأنعام** :٨٢]

والظلم هنا هو الشرك ، كما يبيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأظلم الظالمين أيضاً من يفترون على الله كذباً في ذاته وأسمائه وصفاته ، ويكذّبون بآياته التي أنزلها على رسله في كتبه ، أو أقامها في السماء والأرض ، والآفاق والأنفس...دلائلَ على وجوده وقدرته وحكمته :

« سَلِ الأرضَ من غرس أشجارَك ، وشقَّ أنهارَك ، وجَنَى ثمارَك ، فإن لم تجبك حِوارًا ، أجابتك اعتبارًا [(١)] »

تَفكّرْ في نباتِ الأرضِ وانظرْ إلى آثار ما صَنَعَ المليكُ
عُيونٌ من لُجَيْنٍ شاخِصاتٌ بأبصارِ هِيَ الذَّهبُ السَّبيكُ
على قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شاهداتٌ بأنَّ اللهَ ليسَ لهُ شَريكُ [(٢)]

فُواعَجباً كيفَ يُعصى الإلهُ أمْ كيفَ يَجْحدُهُ الجاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّهُ واحدُ [(٣)]

يقول الله تعالى :{ **ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أوكذَّب بآياته . إنه لا يفلح الظالمون** } [الأنعام: ٢١]

ويقول :

{ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته . إنّه لا يُفلح المجرمون** }[**يونس:١٧**]

ويقول :

{ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أوكذَّب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوىً للكافرين } [العنكبوت : ٦٨]

ويقول :

{ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذبَ بالصدق إذ جاءه . أليس في جهنم مثوىً للكافرين} [الزمر : ٣٢]

ويقول :

{ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليُضِلَّ الناسَ بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } [الأنعام : ١٤٤]

فافتراءُ الكذب على الله عز وجل ، والتكذيبُ بآياته... والتكذيب بالحق وقد ظهر الحق...والتكذيب بالصدق وقد قامت الدلائل على أنه صدق... بعلم كان ذلك أو جهل... ومهما كانت البواعث - ولا تكون هنا إلا بواعث سوء -... ظُلْمٌ لا يفوقه ظلم ، { **والله لا يهدي القوم الظالمين** }...لا يهديهم إلى السداد والرشاد والفوز في الدنيا والآخرة .

وإذا كان تجاوزُ حدودِ الحقِّ والصدق ، والتوحيدِ الخالص من أدران الشركِ، وتعاليم الله عز وجل في كتابه العزيز ، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم...ظُلْما؛ فإن تجاوز الوسائل والأسباب والسبل الموصلة إلى الحق في جميع ما تقدم وفي سواه ، هو ظلمٌ أيضاً يحاسَب صاحبُه عليه .

ومعنى " ظَلمَ " في اللغة - كما تعلمون - جار وجاوز الحدّ ، ومعناها أيضاً : " وضع الشيء في غير موضعه ". وفي المثل : " من استرعى الذئب فقد ظلم " أي : من جعل الذئب راعياً لغنمه فقد وضع الشيء في غير موضعه .

نحن مطالبون إذن بأمرين :

أن نضع الأشياء في مواضعها الصحيحة كما أمرنا الله ، وألا نَجُورَ فيها ، ونجاوز حد الصواب ، فنضَعَها في الموضع الخطأ ؛ فإذا قصّرنا في هذا أوذاك كنا من الظالمين .

والله قد أعطانا في - جملة ما أعطانا - الأسماع والأبصار والأفئدة والعقول، وسائر الحواس

والملكات والإمكانات...نهتدي بها إلى الحق ، ونميّز بها بينه وبين الباطل ، ونكتسب بها المعرفة ، ونكتشف بها الكون والحياة ، ونواميسَ الكون والحياة ؛ وأوجب علينا أن نحسن استخدامها والاستفادة منها ، وجعلنا مسؤولين - أمامه - عن ذلك كله .

فمن عطّل سمعه وبصره - مثلاً - فهو ظالم ، ومن عطل عقله وفكره فهو ظالم ومن قصّر في طلب العلم والمعرفة الواجبة فهو ظالم .

قال تعالى في وصايا سورة الإسراء :

{ ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولا} [الإسراء: ٣٦]

أي : لاتَتّبِع - كما يقول العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى - ما ليس لك به علم يَثْبتُ عندك بالرؤية البصريّة ، أوبالروايات السمعية ، أو بالبراهين القطعيّة ، فإن الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاث..."

وقال تعالى :

{ والله أخرجكم من بطون أمّهاتِكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمعَ والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون } [النحل : ٧٨]

أي : جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وسائل للعلم والمعرفة والإدراك والتمييز .

وقال تعالى :

{ إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ❋ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار } [آل عمران : ١٩٠-١٩١]

وقال : **{ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض } [يونس : ١٠١]**

وقال : { **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } [فصلت : ٥٣]**

وقال : **{ وفي الأرض آيات للموقنين ❋ وفي أنفسكم أفلا تبصرون } [الذاريات : ٢٠-٢١]**

وقال : { **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا } [سبأ:٤٦]**

وقال : **{ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون } [الحشر : ٢١]**

{ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون } [العنكبوت :٤٣]

{ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء } [فاطر : ٢٨]

أيها الإخوة والأخوات :

لا يجوز لنا أبداً أن نعطّل ما وهبنا الله من الأسماع والأبصار والعقول وسائر الهبات والطاقات ، وأن نقصّر في وضعها مواضعها الواجبة على كل صعيد .

وقد أنذر الله عز وجل من يعطلون ما وهبهم من هذه الهبات وغيرها ، ويصرفونها عن أداء وظيفتها ودورها...سوء العاقبة ، وأدانهم أشدّ إدانة ، وذمهم أبلغ ذم :

{ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون } [الأعراف : ١٧٩]

وقال تعالى حكاية عن أهل جهنم :

{ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ❋ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير } [الملك : ١٠-١١]

وبعدُ ، فقد بدأت من الكلام على الظلم بظلم الحق ، لأنه أساس كل ظلم ومنطلَقُه والمدخل إليه ؛ فمن ظلم الحقَّ فجاوزه وحاد عنه ، ظلم بذلك نفسه وظلم سواه ، وانحرف عن سواء السبيل في كلّ جوانب الحياة .

ومن عرف الحقّ ولزمه أنقذ بذلك نفسه ، وأنصف غيره ، واستقام على طريق الخير والصلاح والإصلاح في مختلف جوانب حياته ، وكان نعمة على نفسه ومجتمعه وسائر الناس .

ومن هُديَ إلى الحقيقة الكبرى في هذا الوجود بفضل الله تعالى ، وبصدقه وجده وحسن الإفادة مما حباه الله من وسائل ، وأقام له من معالم...فآمن بالله حق الإيمان ، ووحّده أخلص التوحيد ، وفهم عنه ما أنزل من كتاب...عرف الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والعدل والظلم ، وتوجهت نفسه إلى مناصرة الحق والصواب والعدل ، ومجانبة الباطل والخطأ والظلم ، في خلوته وفي جلوته ، وفي كلّ مجال من المجالات .

ومن أحسن استخدام ما حباه الله تعالى من الحواس والعقل ، والعلم والفهم، والإرادة والحماسة والقدرة على الفعل ، فقد وجد السبيل إلى التمييز بين الحق والباطل ، والعدل والظلم ، وإلى العمل بالعدل ، ومجانبة الظلم ومقاومته على كل صعيد .

- وإلى اللقاء في عدد قادم إن شاء الله –

الهوامش :

(١) هذا الكلام للفضل بن عيسى الرقاشي ، ومعنى قوله : فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً : " إن لم تجبك بلسان المقال ، أجابتك بلسان الحال " .

(٢) تنسب هذه الأبيات لأبي نواس .

(٣) البيتان لأبي العتاهية .